

المبحث الرابع

الدروس السياسية

١ - الإسلام يدعو إلى السلم، ويسالم المعاهدين، ويفتك بالغادرين:

يقول د/ فيض الله: «وفى النبي ﷺ والمسلمون بعهدهم في الوثيقة التي عقدوها لليهود، وما أخلوا ببند منها؛ لكن اليهود؛ كانوا في كل مرة هم الغادرين، وهم الذين أخلوا مرة بعد مرة بما نصت عليه الوثيقة.

فبنو قينقاع منهم عبثوا بحجاب المرأة المسلمة، وهددوا الرسول ﷺ والعهد قائم بينهم وبينه؛ وبنو النضير هموا بقتل الرسول ﷺ والعهد ما يزال قائماً؛ وها هم أولاء بني قريظة يؤلبون قريشاً والمشركين العرب على رسول الله ﷺ لِيُجْهَزُوا نهائياً على الدولة المسلمة الناشئة، ورسول الإسلام ﷺ، وعلى المسلمين، فيقتلوا رجالهم، ويسترقوا نساءهم، ويمزقوا ذريتهم.

وما يكون للإسلام - وإن كان هو دين السلام - أن يقف ساكتاً مسالماً، مكتوف الأيدي حيال هذه الخيانات القذرة المسفرة؛ لهذا تصدى لهم في كل مرة؛ ولا خير في قوم ينقضون العهد مرة بعد مرة، وهم يرون عواقب نقض العهود، ونكت المواقف، لا في غيرهم، بل في أنفسهم وإخوانهم.

ولا يمكن للسلم أن يستتب، ولا للعدالة أن تستقر، إلا بالقوة التي تذود عنها، وتحمي حماها، وتضرب على يد كل عاثب بها:

وَلَا خَيْرَ فِي حُلْمٍ إِذَا لَمْ تَكُنْ لَهُ بِوَادِرٍ تَحْمِي صَفْوَهُ أَنْ يَكْدَرَا

وإن من الحلم ومن السلم أن يقضي على الظلم، حينما يُكشَّرُ عن أُنْيابه، ويقلَّم الغدر كلما أطال أظافره، واستَحَدَّ مخالِبه، كيلا تقوم لها قائمة أمام السلام.

ففي مثل هذا يقول الله تعالى: ﴿وَأِنْ كُنْتُمْ لَا تَكُونُونَ لَكُمْ لَعْنَةُ اللَّهِ﴾ [التوبة].

ويقول: ﴿وَأَيُّهَا خِزَانَةُ قَوْمٍ خِيَانَةً قَائِلَةً إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَاقِينَ﴾ [الأنفال].

[صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة لفيض الله ٢٥٦-٢٥٧].

ويقول أ/ الندوي: «جاء في كتاب Cambridge History of Islam (٤٩/١) بقلم الأستاذ الإنجليزي Montgomery: «كانت قد بقيت في المدينة قبيلة عظيمة، هي قبيلة بني قريظة، وكانت تتظاهر بالإخلاص عندما حاصر المشركون المدينة، ولكن مما لا شك فيه أنها كانت قد تمايلات مع المشركين، وكانت تنتهز أول فرصة للهجوم على المسلمين من خلف». [السيرة النبوية للنندوي هامش ٢ ص ٢٦٠].

٢ - اليهود والعرب بين الأمس واليوم:

يقول د/ الغضبان: «أما اليهود، وما أدراك ما اليهود؟ فيها هم يُساقون إلى مصارعهم، ولا يعرفون فيسألون زعيمهم كعب بن أسد عن الأمر فيقول لهم: أَفِي كُلِّ مَوْطِنٍ لَا تَعْمَلُونَ؟ أَلَا تَرَوْنَ الدَّاعِيَ لَا يَنْزِعُ، وَأَنَّهُ مَنْ ذَهَبَ بِهِ مِنْكُمْ لَا يَرْجِعُ؟ هُوَ وَاللَّهُ الْقَتْلُ، لقد أدرك بصره الثاقب هذا المصير المروع، ونصحهم بمنعرج اللوى، فلم يستبنوا النصيح إلا ضحى الغد، وها هي رجالهم تُذبح، ونساؤهم تُسبى، وأموالهم تُقسم.

ويأتي زعيم الغدر والخيانة حيي بن أخطب ليمثل الجبلية اليهودية في كل جيل كما وصفها القرآن الكريم: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِّقَا بَيْنَكُمْ وَفَرِّقَا بَيْنَهُمَا﴾ [البقرة]. إن حيي بن أخطب ليدرك حظه من أوله، فهو يحارب الله ورسوله، وهو يعلم أن محمداً ﷺ حق، ولكنها عنجهية الجاهلية.

إنه أبو جهل الذي رفض الإيمان حتى لا يسبقه بنو إسماعيل، أولاد هاجر الجارية، إنه الحقد الأسود، والكيد الأعمى، والحرب لله ورسوله، ولا يشتهي من ذلك كله: وَاللَّهِ مَا لُمْتُ نَفْسِي فِي عِدَاوَتِكَ، إنه ليعلم أن حقه أكبر من دينه، ويعلم أنه يحارب الله ورسوله، وَلَكِنَّهُ مَنْ يُحْذِلِ اللَّهُ يُحْذِلْ، إنها كلمات أبي جهل: على من كانت الدبرة، وفي رواية: لمن الدائرة؟ وكان الجواب: لله ورسوله، ولقد أبقى الله لك ما يخزيك، ويحيب: هل أعمد، وفي لفظ: هل عدا رجل قتلتموه، إنه عميد القوم، وسيد البطحاء يقتل، وهو يرى الخزي فلا ينسى شرفه، ولا ينسى حقه، إن فرعون خير منه حين رأى الغرق فقال: ﴿ءَأَمِنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمِنْتُ بِهِ، بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس].

وتعود الجبلية اليهودية اليوم من جديد لتزكم الأفق، وتظهر من خلال آلاف الحوادث منها هذه الحادثة: وقف أحد المتافقين في الشام في حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧م يخطب على منبر الجامع الأموي والإذاعة تنقل خطبته ليحرف حديث رسول الله ﷺ بقوله: لا تقوم الساعة حتى يقاتل العرب اليهود، فيقتل العرب اليهود، فيقول الحجر والشجر: يا عربي، يا عبد الله ورائي يهودي تعال فاقتله، إلا الفرقد فإنه من شجر اليهود.

وتخرج إذاعة إسرائيل في اليوم التالي لتصحيح للشيخ المنافق الحديث وتذكر له روايته، وتذكره به: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقَاتِلَ الْمُسْلِمُونَ الْيَهُودَ، فَيَقْتُلُهُمُ الْمُسْلِمُونَ، حَتَّى يَحْتَبِيَ الْيَهُودِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْحَجَرِ وَالشَّجَرِ، فَيَقُولُ الْحَجَرُ أَوْ الشَّجَرُ: يَا مُسْلِمُ! يَا عَبْدَ اللَّهِ! هَذَا يَهُودِيٌّ خَلْفِي، فَتَعَالِ فَاقْتُلْهُ، إِلَّا الْفَرَقْدَ فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرِ الْيَهُودِ». [مسلم في الفتن وأشرط الساعة (٢٩٢٢)، ومسند أحمد ١/٥ ٢٣٣ عن أبي هريرة ر. ٩٣٩٨].

والذي يعنينا من الحديث هو معرفة اليهود بمصيرهم المشؤوم، أو قياداتهم على الأقل، ومعرفتهم أن النصر للمسلمين، لكنهم واثقون كذلك أنهم يقاتلون عرباً بدون عقيدة وبدون إسلام، وهم مطمئنون إلى نصرهم في هذه الحالة لما يبذلون من جهد، ويخططون من كيد؛ ولأنهم حين يحاربون المسلمين فهم منهزمون، ومع ذلك فهم يقاتلون، ويقولون كما قال زعيمهم حيي: **إِنَّهُ لَا بَأْسَ بِأَمْرِ اللَّهِ كِتَابٌ وَقَدَرٌ وَمَلَحَمَةٌ كَتَبَهَا (كُتِبَتْ) اللَّهُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ.**

أما الآن، فكما قال الله تعالى عنهم: **﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَبِيعَ مِلَّتَهُمْ﴾** [البقرة: ١٢٠]، وكما قال الله تعالى: **﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقْنَلُوكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِيَارِكُمْ إِنْ أَسْتَطَعُوا﴾** [البقرة: ٢١٧].

وهم مطمئنون اليوم أن الحرب الحقيقية لم تقم بعد، وأنهم حين يواجهون عنفاً في حرب فإنها يكون وراءه مسلمون حقيقيون، إنها نماذج بطولات فردية، وها هم العرب اليوم كلهم يعلنون سلمهم مع يهود ويطلبون منها الصلح، ونهاية اليهود التي كانت في بني قريظة ستكون نهايتهم - إن شاء الله - على أرض فلسطين، الأرض المباركة التي وعد الله تعالى فيها بنصر جنده المؤمنين، وكانت أسلحتهم وأموالهم غنيمة للمسلمين». [المنهج الحركي للسيرة النبوية للغضبان ٢/ ٣١١-٣١٣].

ويقول الشيخ الغزالي: «إن موقف اليهود من الإسلام بالأمس هو موقفهم من المسلمين اليوم.

فألوف من إخواننا ذبحهم اليهود في صميت وهم يحتلون فلسطين.

والغريب أن اليهود تركوا مَنْ نَصَبَ لهم المجازر في أقطار أوروبا، وجبنوا عن مواجهتهم بشراً واستضعفوا المسلمين الذين لم يسيروا إليهم من اثني عشر قرناً، فنكّلوا بهم على النحو المخزي الفاضح، الذي لا يزال قائماً في فلسطين... تشهده وتؤيده وتسانده دول الغرب». [فقه السيرة للغزالي ٣٢٧-٣٢٨].

ويقول د/ عبد الباري الطاهر: «ونحن اليوم نرى بأم أعيننا تطور الخيانة اليهودية، وتشكّل صورها، فقد بدأت بإغراء الفلسطينيين بالمال والذهب؛ ليخرجوهم من أراضيهم، فدافعوا دون عرضهم وأرضهم، فانتقل يهود إلى سياسة الطرد والتشريد، ثم إلى القتل والتعذيب، ثم إلى محاول استتصال تام، دون رحمة أو شفقة على الأبرياء، وما مقتل محمد الدرة وأقرانه منا ببعيد، وما قتل النساء والشيوخ الزمنى والشباب الذين في ريعان شبابهم يخاف عنا، وكل هذا على مرأى ومسمع من عالم يظن أنه متحضر، ويرعى حقوق الإنسان، ويتشدق بالديمقراطية، ويحسب لقتل هرة ألف حساب، ولا يعنيه سحق المسلمين في فلسطين في شيء، فالدغم الإسلامي في نظرهم أقل من دم هرة صدمتها سيارة، وتزداد ضراوة الخيانة والغدر حين يعلن يهود بعد قتل الأبرياء أن هؤلاء المساكين كانوا يريدون الوقوف أمام حقوقهم، ويرهبونهم، ويضايقونهم.

فأين دعاة الرحمة، وحماة العدل، وأدعياء السلام، ورفقاء الطريق، ورعاة حقوق الإنسان، وحماة الفضيلة، والسعاة إلى عالم لا يعرف الشر فيه مكاناً في ظل عولمة لا معنى لها ولا ضمير!

ومع هذا أقول: والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون، وسيأتي فجر جديد يندحر فيه الباطل وأهله، ويعلو صوت الحق، وتعود الدنيا صالحة تحكم بمنهاج النبوة، ويسودها العدل والخير والسلام، فمتى سيكون ذلك؟؟ قل عسى أن يكون قريباً. [تطور الخيانة اليهودية في عصر النبوة - د/ عبد الباري الطاهر - موقع التاريخ على شبكة المعلومات الدولية بتاريخ الاثنين ٢٢ أبريل ٢٠٠٧م / ٥ ربيع الثاني ١٤٢٨ هـ].

ويقول ل/ خطاب: «لقد تنكر العرب والمسلمون لعقيدهم وحضارتهم، والأمة التي لا تحترم نفسها لا يمكن أن تحترمها الأمم، والمرء حيث يضع نفسه، والأمة حيث تضع نفسها.

غَيَّرَ العرب والمسلمون ما بأنفسهم، فتداعت عليهم الأمم كما تداعى الأكلة على الثريد، وأصبحوا مناطق نفوذ للدول الاستعمارية، وكانوا من قبل سادة الدنيا وقادة العالم.

حتى يهود أصبح لهم في بلاد العرب دولة، وأصبح لهم صولة، وأصبحوا قوة لها شأن ولها كيان! هؤلاء الذين كانوا ولا يزالون وسيقون وصمة عار في جبين الإنسانية، ولطخة خزي في ضمير البشرية، ونقمة على العالم كله.

هؤلاء الجبناء: سلاحهم الدس والخديعة، وعتادهم الغدر والخيانة، ودأبهم الخسة والمكر.

إن دولة إسرائيل نتيجة من نتائج إغراض العرب والمسلمين عن دينهم وحضارتهم، ولو كان العرب عرباً حقاً، ولو كان المسلمون مسلمين حقاً، لقال يهود كما قال أسلافهم من قبل: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ [المائدة: ٢٢].

تُرى! ماذا كان يحدث لو ترك الرسول القائد ﷺ، يهود المدينة المنورة وما حولها، ويهود خيبر، يرتعون ويمرحون، ويغدرون ويدسون، ويخونون ويتآمرون؟

إن رسول الله ﷺ، خاطب يهوداً باللغة الوحيدة التي يفهمونها هي لغة القوة: «الخطبة المخزية أو الحرب المجلية»^(١)، كما قال أبو بكر الصديق ؓ.

فلماذا يدعي العرب والمسلمون، بأن رسول الله ﷺ هو أسوتهم الحسنة وقدوتهم الكريمة، ثم لا يتأسون به ولا يقتلون بأعماله؟

إننا عرب ولكن من قوارير، ومسلمون ولكننا مسلمون جغرافيون!

(١) أما الخطبة المخزية فأن يقرأوا بأن من قتل منهم في النار، ومن قتل منا في الجنة. وأما الحرب المجلية فأن يخرجوا من ديارهم، ينظر: ابن الأثير ٨٢ / ٢، وفي البلاذري (١٠٤) وردت: «الحرب المجلية، والسلم المخزية». ينظر التفصيل في قادة فتح العراق والجزيرة (٨٥).

في حرب سنة ١٩٤٨ م بين العرب ويهود على أرض فلسطين، كنت ضابط ركن جحفيل لواء (مؤلف من مقر اللواء وثلاثة أفواج، مع المدفعية والهندسة والطبابة والنفالية) مستقر في مدينة (جنين)، فلمست حقائق مذهلة عن جنين يهود الأصيل.

قبل الهدنة الأولى التي فرضتها هيئة الأمم المتحدة على العرب، كانت الجيوش العربية على أبواب (تل أبيب) عاصمة إسرائيل.

وفرض الهدنة الأولى، كان لإنقاذ يهود من اندحار أكيد.

وبعد معركة (جنين) التي خاضها فوج (وحدة مشاة لا يزيد تعداده على ألف شخص) عراقي واحد مقابل ما يزيد على العشرة آلاف يهودي، أخلى اليهود مدينة العفولة وحيفا، وانفجرت مظاهراتهم الصاخبة مطالبة بإيقاف الحرب بأي ثمن وبدون قيد أو شرط.

ومعركة (جنين)، هي معركة العراء الوحيد الذي اضطر يهود على خوضها، ولم يشهدوا بعدها معركة عراء أبداً، وصدق الله العظيم: ﴿لَا يَغْنَبُوكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرْدٍ جَدِّ بِأَسْهُمٍ بَيْنَهُمْ سَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر: ١٦].

وكان ضباط يهود حين يحضرون المفاوضات مع ضباط العرب بإشراف ممثلي الهدنة من هيئة الأمم المتحدة، ويرفضون الحضور ما لم يتأكدوا من أن الضباط العرب عُزل عن السلاح.

وقد هاجمت دورية (جماعة للاستطلاع والحصول على المعلومات إما بالقتل أو بدونه) قتال يهودية قرية (جلبون) في ليلة من ليالي خريف سنة ١٩٤٨ م وأسرت ستة رجال وامرأتين، فما كان من جيش العراق المرباط في (جنين) إلا أن قصف مستعمرة (تل العمال) القريبة من (بيسان) بست عشرة قنبلة من قنابل المدفعية، وأشاع أن هذه العملية هي انتقام من يهود لأسرهم العرب من جلبون، فسارع يهود على أثرها بإطلاق سراح الأسرى، وأرسلوهم معززين مكرمين بعد أقل من أربع وعشرين ساعة من موعد قصف المدفعية لمستعمرة (تل العمال).

ومع ذلك وطدت إسرائيل أقدامها في الأرض المقدسة، ومع ذلك استطاع يهود أن يحتلوا اللد والرملة بثلاث مدرعات.

ومع ذلك استطاعت إسرائيل أن تفرض إرادتها على العرب.

لقد كان لمن وراء إسرائيل من الدول العظمى أثر بالغ على فرض إسرائيل في جزء مقدس من أرض العرب ودار الإسلام.

ولكن من وراء إسرائيل وزنوا العرب وهم مائة مليون أو يزيدون، ووزنوا المسلمين وهم خمسمائة مليون أو يزيدون، في ميزان القوة مع يهود إسرائيل، وهم يومئذ مليون ونصف، فوجدوا أن وزن يهود في

ميزان القوة أثقل من وزن العرب والمسلمين؛ لأن العرب والمسلمين حينذاك كانوا غطاء السيل، ولو كان الأمر خلاف ذلك لتبدل الحال غير الحال.

ويوم يُثبت العرب والمسلمون أنهم رجال حقاً، فسيجدون العالم كله إلى جانبهم؛ لأن صوت القوة هو الصوت المسموع في العالم كله، وكل قول يخالف ذلك هراء في هراء.

لقد كانت الجيوش العربية عام ١٩٤٨ م مقيدة بقيود ثقيلة من السياسيين المحترفين الذين كانت قلوبهم مع العرب وسيوفهم مع الاستعمار؛ لذلك قلتُ في حفلة توديع الجيش العراقي بمناسبة عودته من فلسطين إلى العراق:

لا تعدلوا جيشَ العراقِ وأهله بلواكموا ليست سوى بلوانا
إن السنن يكون عند مُكبّل بالقيد في رجله ليس سنننا
إني لأعلم أن دينَ محمدٍ لا يرضي للمسلمين هوانا
وهو الخلود لمن يموت مجاهداً ليس الخلود لمن يعيش جباناً

إن اللغة الوحيدة التي يفهمها يهود، هي لغة القوة، ولن يحل مشكلة العرب في فلسطين غير السيف. أما هيئة الأمم المتحدة، أما مجلس الأمن الدولي، أما المؤتمرات الدولية، أو الاحتجاجات الصاخبة، أما الخطب والقصائد، أما الصراخ والعويل، فلن تحل هذه المشكلة، وينطبق عليها المثل العربي السائر: (أَشْبَعَتْهُمْ شَمًا وَرَأَحُوا بِالْإِبِلِ). [تقديم غزوة بني قريظة لباشميل ٩-١٣].

٣ - سياسة اليهود وطبائعهم لم تتغير:

يقول د/ أبو فارس: «كعب بن أسد زعيم بني قريظة يصف قومه اليهود بقوله: «مَا بَاتَ رَجُلٌ مِنْكُمْ مُنْذُ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ لَيْلَةً وَاحِدَةً مِنَ الدَّهْرِ حَازِمًا»، قال هذه العبارة بعد أن عرض عليهم ثلاثة اقتراحات ليأخذوا بواحد منها، حلاً لمشكلتهم، ولكنهم لم يأخذوا بشيء منها، وأبوا عليه، وفي نفس الوقت لم يقترحوا تدبيراً آخر، ينطلقون منه، لحل مشكلتهم.

هذا تقرير كعب وحكمه على اليهود، فهل تغيرت طبيعة اليهود بعد ذلك؟ وهل اليهود في عصرنا اليوم يختلفون في الخصائص عن يهود بني قريظة؟

إننا نرى اليهود اليوم يبادرون باتخاذ القرارات، ويقومون بتنفيذها في المنطقة، رغم أنهم ليسوا من أهالي البلاد، بل يُرهبون أهالي المنطقة، والدول العربية كلها، وأهل المنطقة الأصليون يترددون في اتخاذ القرار الحازم كما تردد يهود بني قريظة، ويخافون من التصريح به، بل يصرون علناً على رفضه، واختيار طريق الحل السياسي.

أقول: إن طبيعة اليهود التي حَدَّث عنها كعب بن أسد زعيم بني قريظة لم تتغير ولن تتغير، قد تحدث عنها القرآن في آيات كثيرة كقوله سبحانه: ﴿لَا يَقْنِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي فُرَى مُحْصَنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدٍّ بِأَسْهُمٍ بَيْنَهُمْ سَدِيدٌ تَحْسِبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر: ١٦].

إن اليهودي كما سجل القرآن يخاف من المسلم المجاهد أكثر من خوفه من الله؛ لأنه ليس مؤمناً بالله سبحانه حق الإيمان، قال تعالى: ﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُوْنَ﴾ [الحشر: ١٣].

وإذا كان اليهود لم يغيروا طبيعتهم، وأخلاقهم، فما الذي تغير إذن حتى احتلوا بعض بلاد المسلمين كفلسطين والجولان وجنوب لبنان، ويعيشون في الأرض فساداً فيجربون المنطقة بجيوشهم ودباباتهم وطائراتهم.

إن الذي تغير في المنطقة هم أهلها، لقد كانوا مسلمين حقاً يقولون ويفعلون، فأصبحوا يقولون كثيراً ولا يفعلون شيئاً، نسمع منهم جعجعة ولا نرى طحناً، قد استولى اليأس على قلوبهم، ونهش الخوف نفوسهم، ودب الذعر في أوصالهم، وأصبحوا على درجة من الذل والهوان والتردد والضياع، ما أطمع أجبن خلق الله فيهم، وهم اليهود.

كل هذا بسبب بعدهم عن الله تبارك وتعالى، واستبعادهم لشرع الله من واقع حياتهم، ونفورهم من القيم الإيمانية، والأخلاق الإسلامية التي تحلى بها صحابة رسول الله ﷺ، فذلت يهود لهم، وخضعت أعناقهم لهم في قريظة والنضير وقينقاع وخيبر.

ويوم أن تحلى المسلمون عن مبادئهم وقيمهم قذف الله في قلوبهم الوهن: حب الدنيا وكرهية الموت، فتخلقوا بأخلاق اليهود، وانطبق عليهم قول كعب بن أسد اليهودي: مَا بَاتَ رَجُلٌ مِنْكُمْ مُنْذُ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ لَيْلَةً وَاحِدَةً مِنَ الدَّهْرِ حَازِمًا.

بالله عليك أخي القارئ، هل تسمع - مجرد سماع - صوتاً واحداً على المستوى الرسمي ينادي بالحزم مع اليهود، ويعد للأمر عدة؟

هذا لا يحدث الآن، لكن لابد لليل أن ينجلي، ولابد للصبح أن يتنفس، ولابد لنور الفجر من بزوغ مهها طال الليل، وكان حالكا.

إن إقبال الشباب على الله، وامتلاء المساجد بهذا الشباب، ودور العلم والجامعات ليبشر بقرب الفرج، والنصر ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾ [الإسراء: ٥١].

نسأل الله أن يمن علينا بأن نكون من جند الإسلام المجاهدين، وحزبه الغالبين على اليهود وعلى سائر أعداء الدين، أعداء المسلمين، فوق كل أرض وتحت كل سماء». [الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢ / ٦٢ - ٦٤].

٤ - بين بني قريظة ومن سبقهم من اليهود:

يقول د/ الوكيل: «وجاء دور بني قريظة - تلك الفئة الباغية من اليهود، وثلاثة الأثافي فيهم - لقد نقضوا العهد من غير موجب، وانضموا للعدو بلا مبرر، وفتحوا على المسلمين ثغرة كانت مغلقة، وكان المسلمون آمنين من جانبيها، لا يحملون لها همماً، ولا يلقون لها بالاً، فماذا يكون موقف المسلمين من هؤلاء الذين ارتكبوا جريمة الخيانة العظمى في حق وطن ضمهم بين جناحيه، ومتعهم بكل حقوق أبنائه، وأمنهم على أرواحهم وأموالهم، ومنحهم حرية ممارسة شعائر دينهم بمعاهدة محترمة؟ وماذا يكون لو تركهم المسلمون آمنين بعد ارتكاب هذه الجريمة الخبيثة؟

أليس من الممكن أن تتكرر منهم لو حانت لهم الفرصة؟ ومن ذا الذي يضمن استقامتهم، ويتحمل مسؤوليتهم؟

إن يهود قريظة لم يتخذوا عبرة من إجلاء إخوانهم بني النضير، ولا من إخراج بني قينقاع، ولعلمهم ظنوا أنه ليس لدى المسلمين عقوبة سوى الطرد والإجلاء فأغراهم ذلك بالتمرد وقطع العلاقات والتمازج مع العدو، على أمل أن أقصى ما سيصيبهم إخراجهم من الديار، ولعلمهم يفكرون حينئذ في الانضمام إلى بني النضير في خير.

ولكن هيهات هيهات، إن ما حصل من بني قينقاع كان مجرد حقد وبغي، وتعدُّ على بعض أفراد الأمة الإسلامية لم يؤثر على حياة المسلمين بشيء يُذكر، كما أن ما ارتكبه بنو النضير كان مؤامرة لم تتم، وجريمة لم تنفذ، ولم يتأثر المجتمع الإسلامي من جرائمها بما يعرضه للخطر، ويغري أعداءه بالتعدي عليه.

أما جريمة بني قريظة فكانت ضد الأمة بأكملها، لاستئصال قائدها، واجتثاث عقيدتها، وهدم ذلك الصرح الشامخ الذي بناه الإسلام بسواعد أبنائه المغاوير، فلا عجب إذن أن تكون عقوبة الأولين الطرد من البلاد، والاستيلاء على السلاح والأموال، وتكون عقوبة الآخرين استئصال شأفتهم، وقطع دابرهم بقتل المحاربين منهم، واسترقاق نساءهم وذرائعهم، فهل كان ينتظر أحد أن يعفو النبي ﷺ عنهم كما عفا عمن قبلهم؟

لا شك أن العفو يكون مجزئاً لكل من معه عقد من المسلمين على نقضه، فليست هناك جريمة أبشع مما يسميه المقتنون الخيانة العظمى، فإذا لم يتصرف المسلمون مع مرتكبيها تصرفاً رادعاً، فماذا ينتظرون ممن يتربصون بهم الدوائر؟

لقد كان بين المسلمين وبين بعض القبائل معاهدات، فكيف يكون احترام هؤلاء لتلك المعاهدات إذا لم يحذروا من المسلمين غيرة على عهودهم، وحماساً للدفاع عن موافيقهم.

لهذا كله كان لابد من وقفة جريئة وحاسمة لمعالجة تلك الخيانة، فكان لابد من القتل، فهو الدواء لأمثال هذه القلوب العفنة، والعقول البليدة، وهو الشفاء لتلك الرؤوس المصدعة.

ولقد صدق الشاعر حيث يقول:

وَسَيِّفِي كَانَ فِي الْهَيْجَا طَيِّبًا يُدَاوِي رَأْسَ مَنْ يَشْكُو الصُّدَاعَ

وسواء دارت هذه المعاني في رؤوس المسلمين أم لم تدر، فلم يكن هنالك حل سوى ذلك، ولذلك أمر الرسول ﷺ مناديه أن ينادي في الناس بالذهاب إلى بني قريظة، وقال: «لَا يُضِلُّنَّ أَحَدُ الْعَصْرِ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ».

وتوجه الرسول ﷺ إلى بني قريظة، ونزل على بئر من آبارهم يقال لها: أْنَا - بالفتح والتشديد - وتلاحق به المسلمون، وحاصر قريظة في منازلهم خمسًا وعشرين ليلة حتى أعياهم الحصار، وقذف الله في قلوبهم الرعب.

وأحس سيدهم كعب بن أسد بالخطر يتفاقم عليهم، ولعله قد ذكر موقفه الأول من حيي بن أخطب، ولعله كذلك تذكر العهد الذي أعطاه إياه، تذكر كعب ذلك كله، ورأى بعينه الحصار يشتد، والمسلمين مصممين على استئصالهم عندئذ عرض على قومه خلال الثلاثة، والتي رفضوها جميعًا.

إن هذا الموقف المخزي من اليهود ليسجل عليهم إصرارًا على الباطل برغم رؤيتهم للحق، وتعرفهم عليه كما يسجل عليهم جنبًا ليس جديدًا على طبيعتهم، ولكنه يكشفه ويعريه أمام الناس جميعًا، وعلى الملأ في كل العصور، إن قلوبهم تكاد تنخلع من صدورهم كلما سمعوا بذكر الموت، وهم لهذا يحاولون الفرار منه متعللين مرة بنسائهم وأبنائهم، ومرة يرفضونه حتى لا يفسدوا سيبتهم، والحق أنه الهروب من الموت والحرص على الحياة ولو مع الذل والهوان، وصدق الله العظيم: ﴿وَلَنَجْذِثُنَّهُمْ أَهْرَاصَ النَّاسِ عَلَى حَيَوتِهِمْ﴾ [البقرة: ٩٦].

لقد رفض بنو قريظة ما اقترحه عليهم سيدهم كعب بن أسد فرارًا من الموت، وحرصًا على الحياة، ولكنهم لم يحققوا بهذا الرفض ما حرصوا عليه، بل قد يؤسوا من الحياة يأسًا جعلهم يتزلون على حكم رسول الله ﷺ.

وجاء رجال من الأوس يرجون أن يعاملهم رسول الله ﷺ كما عامل بني النضير حلفاء الخزرج، ونسوا أن جريمة بني النضير مجرد تدبير مؤامرة لم يتمكنوا من تنفيذها، وأن جريمة بني قريظة الخيانة العظمى، وقد نفذوها، وأعانوا الحلفاء على تشديد الحصار، وأمدوهم بما احتاجوا إليه من الغذاء وعلف الدواب وشتان بين الجريمتين.

ولكن الرسول ﷺ مع ذلك لم يرد رجال الأوس خائنين، وهم أحد جناحيه في المدينة، فعرض عليهم أن يُحْكَمَ في بني قريظة رجالًا منهم، وهو سعد بن معاذ ؓ فرضي الأوس بذلك، وقد حاول هؤلاء الوسطاء أن يضغطوا على سعد ؓ ليخفف الحكم في بني قريظة، وذكره بما بينه وبينهم من الحلف، ولكن سعدًا ؓ قطع آمالهم بقوله: لَقَدْ أَنْ لِسَعْدٍ أَنْ لَا تَأْخُذَهُ فِي اللَّهِ لَوْمَةٌ لَائِمٌ.

ورضي بنو قريظة بحكم سعد فيهم، فحكم ﷺ بقتل الرجال، وسبي النساء والذرية وتقسيم الأموال، عندئذ بارك رسول الله ﷺ حكمه، وقال: «لَقَدْ حَكَمْتَ فِيهِمْ بِحُكْمِ اللَّهِ ﷻ». وخاب أمل بني قريظة مرة أخرى في الحرص على الحياة حين فوجؤوا بحكم سعد ﷺ فيهم، وسيقوا من حصونهم وجسوا في بيت كيسة بنت الحارث من بني النجار، وكان عددهم يتراوح بين السبعائة والتسعمائة.

وخرج رسول الله ﷺ إلى سوق المدينة، وأمر بحفر الخنادق هناك فحفرت، ثم سيقوا إلى الموت أفواجاً. [تأملات في سيرة الرسول ﷺ للوكيل ١٩١-١٩٤].

٥ - ضوابط الاجتماع والحوار مع الأعداء

يقول د/ أبو فارس: «يجوز الاجتماع مع الأعداء والحوار معهم في شأن الحرب والسلام على ألا يتهاون مندوب المسلمين أو ممثلهم بحقوقهم، ولا يتنازل عن شيء منها، ولا يفشي سراً من أسرارهم، فلقد أذن رسول الله ﷺ لأبي لبابة رفاعه بن عبد المنذر ﷺ أن يذهب إلى يهود بني قريظة ويجتمع معهم ويتحاور معهم في قضيتهم، قضية إنهاء الحرب مع الرسول ﷺ، والطريقة إلى ذلك.

هذا ولقد اجتمع رسول الله ﷺ مع قادة المشركين ومندوبيهم أكثر من مرة، فقد اجتمع بأبي سفيان بعد نقضه عهد الحديبية، واجتمع مع عروة بن مسعود الثقفي ومكرز بن حفص وسهيل ابن عمرو مندوبي المشركين في الحديبية، ولقد أرسل ﷺ عثمان بن عفان ﷺ إلى زعماء مكة في الحديبية ليخبرهم أن رسول الله ﷺ ومن معه من المسلمين جاؤوا معتمرين للبيت ولم يأتوا مقاتلين.

ليس العيب في اللقاء مع الأعداء، ولكن العيب كل العيب، والخيانة كل الخيانة، والحُرمة كل الحُرمة، والمحظور كل المحظور في هذا الدين أن يفرط بحقوق المسلمين، وأن يخضع المقاضون لضغط العدو، وابتزازه.

إن الشيء الذي يشجبه الإسلام ويرفضه كل مسلم أن يُقر لليهود في أرض فلسطين بشر ثقام لهم دولة فيه، وتُسلم هذه الدولة بعد ذلك، وتُمنع كل يد ترمي عليها حجراً، ويُعتقل كل لسان بعد ذلك يتفوه بكلمة تنادي بحرب اليهود والقضاء على دولتهم، أو يعمل لتمتين الحاجز النفسي وبنائه نحو اليهود المعتدين الذين جاؤوا من شتى بلاد الدنيا، ليخلعوا المسلمين من أرضهم ومقدساتهم، ويقضوا على حضارتهم.

هذه هي الجريمة التي يجب أن يحذر منها، وأن يُنصح الجناة حتى لا يرتكبوها، ويُبصروا بحقيقة الأمر، وخطورته عليهم في الدنيا والآخرة. [الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢٩/٧-٧٠].

٦ - أهمية وجود القيادة السياسية الحكيمة:

يقول د/ أبو فارس: «إن الأوس كما علمت جاوروا يشفعون في بني قريظة كما شفع ابن سلول في بني قينقاع، ولكن جريمة بني قريظة أعتى بكثير من جريمة بني قينقاع، ويستحقون العقوبة الزاجرة لا محالة، وهذه الجواهر ترجوه هذا الرجاء، وهي ليست بعيدة عنه، إنها جنوده، يقاتلون معه، وتحت الرثة، طوع بئانه يوجههم إلى أي وجهة يريد، لا يعارضونه، ولا يقولون: لا، ولكن عاطفتهم جياشة، غلبت العقل، وسيطرت عليه، وهي في هذه الحالة من الانفعال والتأثر تطلب من رسول الله ﷺ طلباً خاطئاً، لولباه لهم لخالف أمره، ولعرض المجتمع الإسلامي في المستقبل إلى هزات عنيفة ربما عصفت به، ماذا يفعل؟

هل يطيعهم ويلبي رجاءهم وهو يعلم نتيجة ذلك؟

هل يصادم هذا الشعور المتأجج الملتهب الجارف؟

لقد قال لهم ﷺ: «أَلَا تَرَوْنَ يَا مَعْشَرَ الْأَوْسِ أَنْ يَحْكُمَ فِيهِمْ رَجُلٌ مِنْكُمْ؟»، قالوا: بلى، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «فَذَاكَ إِلَى سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ». [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٣٩].

لقد أكرم رسول الله ﷺ الأوس وسواهم بالخروج حين جعل الحكم الذي يحكم في أحلافهم منهم، كما ترك بني قينقاع لحليفهم عبد الله بن أبي بن سلول.

أما عبد الله بن أبي بن سلول فقد طلب أن يهبهم له، فنجاهم من القتل المحقق.

وها هو ذا سعد بن معاذ قد جعل الرسول الله ﷺ مصير أحلافه بيده، إلا أن الرسول ﷺ يعرف أن سعداً يقدر الموقف وخطورته تماماً، ولا يتأثر بضغوط العواطف من الأوس.

بهذا طيب الرسول ﷺ نفوس الأوس، وأكرمهم، وفي نفس الوقت لم يغير الرأي الذي يصلح لعلاج بني قريظة، ولكنه كان على لسان سعد ﷺ زعيمهم). [الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ١١٠-١١١].

ويقول د/ الغضبان: «نزل اليهود على حكم رسول الله ﷺ، ورفضوا كل اقتراحات زعيمهم كعب بن أسد، وقرروا أن يتلقوا مصيرهم على يد مَنْ نكثوا عهدهم معه، وهناك بصيص من أمل عندهم أن يعفو عنهم رسول الله ﷺ، أو أن تتمكن الأوس من حمايتهم كما فعل عبد الله بن أبي بحلفائه من بني قينقاع، وكان تصورهم أن تسيطر العصبية على حلفائهم الأوس فينجو بحياتهم على الأقل.

وطالب الأوس بحقهم في الحماية كما فعل عبد الله بن أبي، فكرامة الفريقين الأوس والخزرج واحدة، غير أن اتجاه القيادة يخالف اتجاه القاعدة، فكيف يفعل رسول الله ﷺ أمام هذا الحرج، إنه يملك أن يحسم الأمر بالقتل وانتهى الأمر، والأوس طوع بئانه، غير أنه يحرص على أن لا تصدم عواطف جنده من الأوس، فاختار هذا الحل الموفق: «أَلَا تَرَوْنَ يَا مَعْشَرَ الْأَوْسِ أَنْ يَحْكُمَ فِيهِمْ رَجُلٌ مِنْكُمْ؟»، قالوا: بلى، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «فَذَاكَ إِلَى سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ». [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٣٩].

فلقد تساوى الحيان في الحق، إذ حكم في بني قينقاع زعيم من الخزرج هو عبد الله بن أبي حليفهم، فليحكم في بني قريظة زعيم الأوس سعد بن معاذ رضي الله عنه.

إن القيادة الحكيمة هي التي تتجنب دائماً الصدام مع عواطف شبابها، وتحرص على أن تمثل قناعاتهم وتطلعاتهم، بل تلبية رغباتهم، وحين تصطدم رغبة القيادة مع القاعدة، فالقيادة بحاجة إلى حل مريح يخفف جو الصدام.

إنهم جنودها بهم تقابل، ومن خلاهم سر قوتها ونجاحها، وكلما استطاعت أن تعطي لهم الكرامة والاعتبار، كلما كان هذا أدهى إلى تلاحم الجانبين في صف واحد، بل راعى رسول الله ﷺ في هذه الحرب رغبات كل فرد من أفراد هذا الصف، فلقد كان لرجل من اليهود جميل في عنق ثابت بن قيس رضي الله عنه خطيب رسول الله ﷺ، فطلب ثابت حماية هذا الرجل من القتل من قيادته فوافقت القيادة على ذلك، غير أن الزبير بعد أن عفي من القتل وسلم له ماله وولده وأهله، قال لثابت: فَإِنِّي أَسْأَلُكَ يَا ثَابِتُ بِيَدِي عِنْدَكَ إِلَّا أَلْحَقْتَنِي بِالْقَوْمِ، فَوَاللَّهِ مَا فِي الْعَيْشِ بَعْدَ هَؤُلَاءِ مِنْ خَيْرٍ. [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٤٣].

وقد راعى رسول الله ﷺ كرامة امرأة من المسلمين حين طلبت حماية رفاعة بن سموأل القرظي قائلة: هَبْ لِي رِفَاعَةً، فَإِنَّهُ قَدْ زَعَمَ أَنَّهُ سَيُصَلِّي وَيَأْكُلُ لَحْمَ الْجَمَلِ، قَالَ: فَوَهَبَهُ لَهَا فَاسْتَحْيَتْهُ.

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٤٤].

إن القيادة العبقريّة لا تعدم وسيلة تُطْمَئِنُّ بها جنودها على احترام رأيهم وتقديره حتى ولو كانت خطتها تعاكس أهواء فريق من هؤلاء الجنود، إنها لا تعطل خطتها، لكن لا تتحدى رغبات جنودها بل تحرص على قناعاتهم وإشعارهم بأهمية رأيهم ووجاهته.

صحيح أن على القاعدة أن تطيع، وصحيح كذلك أن السمع والطاعة ليسا كل شيء في علاقة القواعد مع القيادة، بل الحب والثقة، والتفاني هو الأصل في العلاقة؛ ومن أجل ذلك كان حديث رسول الله ﷺ يؤكد الخيرية في أمراء هذه الأمة من خلال الحب: «خِيَارُ أُمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونَكُمْ، وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ، وَشِرَارُ أُمَّتِكُمُ الَّذِينَ يُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ، وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ». [مسلم في الإمامة (١٨٥٥)، والدارمي في الرقاق (٢٧٩٧)، ومسند أحمد ٣٩/ ٤٠٦ عن عوف بن مالك رضي الله عنه رقم ٢٣٩٨١].

وما أخرج قيادة الحركة الإسلامية أن تدرك هذا المعنى وتعمل من خلاله!

وكان بعدها حكم سعد بن معاذ رضي الله عنه.

ورسول الله ﷺ يراعى قيادات الجماعة المسلمة، ويعطيها الأهمية الكبرى، فسعد رضي الله عنه جريح في خيمة رفيدة، وكان بإمكان رسول الله ﷺ أن يمضي أمره بدون رأي سعد رضي الله عنه، لكنه التكرم العظيم لقائد من

قادات هذه الأمة، فلا يحكم بأمر حلفائه إلا بحضوره، بل يوجه الجميع إلى إكبار هذا القائد: «قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ أَوْ إِلَى خَيْرِكُمْ»، فقاموا له.

وبأني دور سعد رضي الله عنه، ورسول الله ﷺ مطمئن إليه، واثق باختياره، وعارف مدى تفانيه بحب الله ورسوله، وترفعه عن العصبية أو الهوى أو حظ النفس، وكم أراداه قومه على ذلك فقال: لَقَدْ أَنْ لِسَعْدٍ أَنْ لَا تَأْخُذَهُ فِي اللَّهِ لَوْمَةٌ لَا تَمُ.

بل لسعد رضي الله عنه ثأر عند يهود بني قريظة حين واجهوه بالسباب والشتيمة، وذكرهم بعهدهم لرسول الله ﷺ فهِزَّوْا بِهِ، وحين أصابه سهم غادر من أحدهم فناجى ربه قائلاً في دعاء طويل: وَلَا تُمِيتْنِي حَتَّى تُفَرَّ عَيْنِي مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ، وها هو أمرهم كله له، فأخذ العهد على قومه أولاً بقبول حكمه، ثم على المهاجرين، وأصدر حكمه بذبحهم لخياتهم وغدرهم.

إن الذي يدرك مرامي المعركة وأبعادها هم القادة الذين يعيشون جوها، ومن أجل هذا وجدنا اتجاه سعد رضي الله عنه يمثل اتجاه الرسول ﷺ تماماً؛ لمعرفة بيواطن الأمور وخفاياها، بينما الأوس يدركون فقط في هذا المجال شرفهم وتساهلهم في هذا الشرف مع الخزرج، ولا نقول الأوس جميعاً، إنما نقول هو تيار قوي فيهم، لكن الذي حدد الموقف تماماً هو سيدهم سعد بن معاذ رضي الله عنه.

وهذا يدعونا إلى القول: إن على القيادة العليا أن تعطي ثقتهما الكبرى للقيادات الوسط التي هي سبيلها إلى الجنود، ونافذتها عليها، وحين تعجز القيادة أن تقنع هذه القيادات الوسط فلن تصل إلى قلوب جنودها، وستكبر الهوة بين الفريقين، ويتمزق الصف شذراً مذبذباً، بل يتمحور حول هذه القيادات الوسطية، ويشكل عقبة كؤوداً في وجه القيادة ومخططاتها. [المنهج الحركي للسيرة للغضبان ٢/ ٣٠٩-٣١١].

٧ - أزمة اجتماعية طارئة:

يقول د/ حيشي: «أيقن بنو قريظة أنه لم يعد هناك سبيل إلى الحوار، وكأنهم استسلموا إلى أمر الله وأمر رسوله فيهم.

غير أن هناك مشكلة اجتماعية قد طرأت، لا بد من النظر فيها من قبل رسول الله ﷺ. وهذه المسألة الطارئة هي أن الأوس - أو بعضهم على الأقل - قد اجتمعوا إلى رسول الله ﷺ يفادونه في شيء يتصل ببني قريظة، قالوا: يا رسول الله، إن يهود بني قريظة كانوا حلفاء لنا في الجاهلية، وكان بيننا وبينهم ما علمت، وأنت قد وهبت بني قينقاع حلفاء الخزرج إلى عبد الله بن أبي ابن سلول، وفعلت ببني النضير ما علمناه، وإنا شفعاء عندك أن تهبنا بني قريظة يخرجون من ديارهم على نحو خروج بني قينقاع، أو خروج بني النضير.

وهنا أزمة حقيقية، فإن الأوسيين سينظرون اليوم إلى ما صنع رسول الله ﷺ للخزرجيين في حلفائهم، ويتسوسونهم عليه.

والخزرجيون سينظرون إلى رفض شفاعة الأوسيين عند رسول الله ﷺ إذا زُدت، على أن النبي ﷺ فضّل الخزرجيين عليهم، فيتعالون على أبناء الأوس.

إنها مشكلة حقًا تدركها معي إذا كنت خبيرًا بمجتمع العرب في الجاهلية.

ترى: كيف سيخرج النبي ﷺ من هذه الأزمة الاجتماعية على سنن الاجتماع والعوائد العربية؟ أما أنا فقد نبّهتك قبل إلى أن الرسول ﷺ حين اختار سعد بن معاذ ؓ وهو زعيم الأوس، وأمره أن يذهب إلى بني قريظة يوم خيانتهم، كان هذا الاختيار من توفيقاته، أو من توفيق الله له، وهو توفيق يحيط به دائرًا ولا يخطئه.

كما أني قد ذكرت لك أن سعدًا ؓ قد أحفظه ما رأى من اليهود يوم خيانتهم، وردهم لرجائه ورجاء من معه، حتى سأل ربه يوم أن سألوه وهو جريح، أن لا يميته حتى يشفي صدره من بني قريظة. اجتمع الأوسيون عند رسول الله ﷺ يشفعون في بني قريظة، ويسألون النبي ﷺ أن يهبهم لهم على مثال ما فعل للخزرجيين.

ولم يتردد النبي ﷺ في موقفه، ولم تأخذه الحيرة فيما هو بصدده، ولكنه قد قال لهم: أيرضيكُم أن يكون الحاكم عليهم، والحكم بيننا وبينهم سيدكم سعد، فقالوا جميعًا: اللهم نعم، وعلم اليهود بما توصل إليه الأوس مع نبيهم، ففرحوا وهذا الجميع؛ لأنهم قد أدركوا أنها انفراجة في الموقف، ما ظن اليهود أنهم بالغوها ولا بشق الأنفس.

عرض النبي ﷺ على الأوس ما عرضه حتى يستل من نفوسهم ما يعتمل فيها من المشاعر والقلق، فقال لهم: «أَلَا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الْأَوْسِ أَنْ يَحْكُمَ فِيهِمْ رَجُلٌ مِنْكُمْ؟»، قالوا: بلى، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «فَذَلِكَ إِلَى سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ». [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٣٩].

وحكم سعد ؓ بحكم الله، ونفذ المسلمون الحكم بيد الخزرجيين. وقد تقاعس أول الأمر الأوسيون عن أن يشاركوا في تنفيذ الحكم، ولكنهم رأوا أن ذلك قد يسيء النبي ﷺ، فنشطوا وشاركوا المسلمين في تنفيذ حكم الله في هؤلاء الخونة.

[رسالة من النبي ﷺ إلى الأمة من خلال تعامله مع خيانات اليهود لحبيشي ١٤٧-١٥١ باختصار].

٨ - رعاية الحاكم للقيادات وتدريبها:

يقول د/ أبو فارس: «لقد كان رسول الله ﷺ يُعنى بالعناصر القيادية، يُشركها في التخطيط والتنفيذ والقيادة، ويعطيها الحرية لتتخذ القرار بملء حريتها وإرادتها، حتى وإن كان القرار مصيريًا، حتى تنمو شخصيتها القيادية، وحتى تتقدم في كفاءتها، تحت رعاية رسول الله ﷺ يوجهها، ويصوبها، ويستحسن ما

حسن من رأي، ويسدد ويقارب، لم يكن قائدًا فرديًا يستأثر بكل القرارات ويستحوذ على السلطة، وتذوب كل الشخصيات في شخصه.

تأمل هذه العناية، وهذا التقدير من رسول الله ﷺ لسعد بن معاذ ؓ إذ يختاره ليتخذ أهم قرار مصيري بالنسبة للمسلمين.

ويحسن بالجماعة الإسلامية أن تُعنى بكواردها القيادية، فتدربها، وتنمي قدراتها من خلال برامج معينة مرحلية بوسائل متجددة متطورة تناسب الواقع والعصر الذي تعيشه.

يحسن بالأمر العام أن يعطي كثيرًا من الصلاحيات لغيره، ويعطيهم من تجاربه وخبراته، ويفسح لهم المجال باتخاذ القرار، بهذا الأسلوب يستطيع أن يفرز كوادر قيادية وينمي قدراتها وإمكاناتها الفكرية والسياسية والإدارية، أما إذا طغت شخصية الأمير عقلت الحركة، وتعرضت للجمود، ومن ثم التخلف عن الركب». [الصراع مع اليهود لأبي فارس ١٠٩/٢ - ١١٠].

٩ - المصير السيئ لطلاب الزعامة:

يقول الشيخ الغزالي: «أجل.. هو القتل، وإنما تقع تبعات الحكم به على من تعرّض له بسوء صنيعه، وبما أسلف من نيات خبيثة لم يسعفها الحظ فتتحقق، ولو قد تحققت لكان ألوف المسلمين هلكى تحت أقدام الأحزاب المنسابة من كل ناحية يحرضهم ويؤازرهم أولئك اليهود.

وربما كانت مغامرات نفر من طلاب الزعامة سببًا في هذه الكارثة التي حلت ببني قريظة، ولو أن حييَّ بن أخطب وأضرابه سكنوا في جوار الإسلام وعاشوا على ما أوتوا من مغانم، ما تعرّضوا ولا تعرّض قومهم لهذا القصاص الخطير.

لكن الشعوب تدفع من دمها ثمنًا فادحًا لأخطاء قادتها.

وفي عصرنا هذا دفع الروس والألمان وغيرهم من الشعوب أثمنًا باهظة لأثرة السياسة المخدوعين.

ولذلك ينعى القرآن على أولئك الرؤساء مطامعهم ومظالمهم التي يحملها غيرهم قبلهم: ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ أَنفُسَهُمْ إِلَى الْوَيْلِ وَيَأْمُرُونَ بِالْفَسَادِ وَأُمْنَاهُمْ﴾ [٢٨] ﴿يَوْمَ يَكْفُرُ كُلُّ يَهُودٍ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [٢٩] ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ [٣٠].

[فقه السيرة للغزالي ٣٢٦-٣٢٧].

١٠ - تحقيق العدالة الاجتماعية:

يقول د/ أبو فارس: «إن توزيع أراضي بني قريظة على المهاجرين دون الأنصار ورد النخيل الذي أعطاه أهل المدينة عارية للمهاجرين ليعود إلى الأنصار كان في غاية الحكمة.

إذ ينبغي ألا تتكدس الثروة الاقتصادية في يد فئة من المسلمين في المجتمع الإسلامي؛ لأن هذا سوء في توزيع الثروة، وحصر للمال من جهة تتحكم في حياة المجتمع ومصيره، بل وتؤثر في ظروفه السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية وسائر شؤون العامة إن أفلتت الأمور، فإن المال ورجال المال إذا لم

يتقوا الله فإنهم يسخرون جميع الطاقات لتنمية أموالهم، وفي نفس الوقت ينقسم المجتمع إلى فئتين: فئة غنية موسرة تعيش فوق السحاب، وفئة فقيرة معدمة لا تملك قوتها اليومي، شقية تعيش تحت التراب، وإذا كانت الظروف كذلك نشأ الحقد والحسد من الفقراء نحو الأغنياء، وانتهى إلى صراع طبقي بغض، وحتى لا يقع هذا أو قريب منه رأى رسول الله ﷺ أن يوزع أرض قريظة على المهاجرين دون الأنصار كما فعل ذلك بأرض بني النضير ونخيلهم، وحتى لا يطغى نصيب المهاجرين على نصيب الأنصار أمر المهاجرين برد نخيل الأنصار إليهم.

إن سوء توزيع الثروة يتمثل في تكديس الأموال في أيدي قليلة هي التي تتحكم في الناس وحياة الناس، والإسلام من مناهجه أن توزع الثروة على أفراد المجتمع توزيعاً عادلاً يستفيد منها جميع فئات المجتمع وأفراده، ويعملون فيه فتنشط الحركة المالية، ويتنفع الناس من جراء ذلك».

[الصراع مع اليهود لأبي فارس ١١٦/٢-١١٧].

١١ - لماذا لا يأبه اليهود لتهديداتنا وصراخنا!!

يقول م / أبو راس: «وهكذا عادت بحمد الله الطمأنينة إلى نفوس المسلمين، بعد أن ظهرت خيبة الأحزاب التي ظنت أن نهاية الإسلام قد دنت، ولكن للإسلام رب يحميه وللمسلمين إله يدفع عنهم ويدافع.

لقد انفضت حشود الأحزاب التي كانت تحيط بالمدينة، بعدما سلط الحق ﷻ عليهم الريح العاصف، التي أطفأت نيرانهم، وكفأت قلوبهم وخلعت خيامهم، وألقت بإذن ربها الرعب في قلوبهم. انفضت حشود الأحزاب ليركوا يهود قريظة ليواجهو قدرهم المحتوم، قدرهم الذي ما ظلمهم الله ولا رسوله فيه بل كانوا أنفسهم يظلمون.

لقد عاشوا بين المسلمين وفي كنف محمد ﷺ وهم يتمتعون بحريتهم التامة، فهم وكما قال سيدهم لم يروا في جوار محمد ﷺ إلا البر والوفاء، ولكن نفوسهم المنحرفة المجرمة، ومعاملاتهم الملتوية الآثمة، وحقدهم الدفين في أعوار نفوسهم على الإسلام والمسلمين، هذا الحقد الذي ما ستره ولا يستره على مر السنين إلا قوة وشكيمة المسلمين، فما إن يظهر على المسلمين الضعف حتى يكشف الغدر عن بواطنه، ويكثر الشر المنطوية عليه نفوسهم، عن أسنانه الخبيثة.

هكذا كانوا منذ صدع رسول الله ﷺ بالدعوة إلى الله ﷻ، وهكذا هم اليوم وإلى أن تقوم الساعة ويرث الحق ﷻ الأرض ومن عليها..

ولم تكن خطيئة بني قريظة في تحالفهم مع القوي المشتركة الباغية بالخطيئة البسيطة التي يمكن التغاضي عنها، فهم عندما وافقوا على الانضمام إلى معسكر الشرك، فإنما كانوا يحملون باللحظة التي يقودون فيها

محاربة المسلمين إلى المقصلة، والتي يقتسمون فيها أبناء ونساء المؤمنين ليكونوا عبيداً لهم، ولولا رحمة الله، ولولا توفيقه لسلمان الفارسي عليه السلام بفكرة حفر الخندق، ولولا رحمة الله وتوفيقه لنعيم بن مسعود عليه السلام، ولولا تغمد الحق ﷺ الرحمن الرحيم بعباده الذين يقف العالم معادياً لهم ناقماً عليهم لأشياء إلا لقولهم ربنا الله، لولا هذا لانطفأت شعلة الإيمان ولتحولت شوارع المدينة إلى خنادق يقتل فيها خير القرون، وإلى أودية تسيل فيها دماؤهم.

لهذا فما أن وثق المسلمون من انصراف الأحزاب عن المدينة حتى أمر رسول الله ﷺ مؤذناً يؤذن في الناس: «مَنْ كَانَ سَامِعًا مَطِيعًا، فَلَا يَصِلَنَّ الْعَصْرَ إِلَّا بَنِي قُرَيْظَةَ»، نعم فكيف يضع المسلمون سلاحهم ولما تضعه الملائكة بعد، فلقد قال رسول الله ﷺ محدثاً عن الروح الأمين جبريل - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام -: «فَمَا وَضَعَتِ الْمَلَائِكَةُ السَّلَاحَ بَعْدُ، وَمَا رَجَعَتِ الْآنَ إِلَّا مِنْ طَلَبِ الْقَوْمِ، إِنَّ اللَّهَ ﷻ يَأْمُرُكَ يَا مُحَمَّدٌ بِالْمَسِيرِ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ، فَإِنِّي عَامِدٌ إِلَيْهِمْ فَمُرِّرْهُمْ بِهِمْ».

لذا قال ﷺ لأصحابه: «عَزَمْتُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَصَلُّوا صَلَاةَ الْعَصْرِ - حَتَّى تَأْتُوا بَنِي قُرَيْظَةَ»، فضربت الشمس قبل أن يأتوهم، فقالت طائفة من المسلمين: إن رسول الله ﷺ لم يرد أن تدعوا الصلاة فصلوا، وقالت طائفة: والله إننا لفي عزيمة رسول الله ﷺ، وما علينا من إثم، فصلت طائفة إيماناً واحتساباً، وتركت طائفة إيماناً واحتساباً، ولم يعنف الرسول ﷺ واحداً من الطرفين.

وحمل علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - راية المسلمين إلى حصون بني قريظة الذين - أي يهود بني قريظة - كانوا لا يزالون على غوايتهم وحقدهم وعميتهم فلم يتورعوا حتى وهم على هذا الحال من سب رسول الله ﷺ ونسائه سباً قبيحاً، فرأى علي بن أبي طالب عليه السلام أن يصرف النبي ﷺ بعيداً عن هؤلاء السفهاء فاعترض طريقه وهو مقبل قائلاً: يَا رَسُولَ اللَّهِ! لَا عَلَيْكَ أَنْ لَا تَدْنُو مِنْ هَؤُلَاءِ الْأَخَابِثِ، قَالَ: «لَمْ أَظُنَّكَ سَمِعْتَ مِنْهُمْ لِي أَدَى؟»، قَالَ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «لَوْ رَأَوْنِي لَمْ يَقُولُوا مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا»، فَلَمَّا دَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ حُصُونِهِمْ قَالَ ﷺ: «يَا إِخْوَانِ الْقَرْدَةِ! هَلْ أَخْرَاكُمُ اللَّهُ وَأَنْزَلَ بِكُمْ نِقْمَتَهُ؟»، قَالُوا: يَا أَبَا الْقَاسِمِ مَا كُنْتَ جَهُولًا.

وأحكم المسلمون الحصار عليهم وأمسكوا بخناقهم، وعرض كعب بن أسد سيد قريظة عليهم الخيارات الثلاثة كما رأينا.

وحاول بنو قريظة أن يظفروا بصلح يحفظ عليهم حياتهم ولكن المسلمين كانوا أشد يقظة، وأشد وعياً وأصرأ على أن يسلم يهود بني قريظة دون قيد أو شرط.

وحدث أن استقدم اليهود - وهم محصورون - أبا لبابة بن عبد المنذر عليه السلام يستشيرونه أينزلون على حكم محمد؟ فقال لهم: نعم، وأشار إلى حلقه كأنه ينبههم إلى أنه الذبح؟ ثم أدرك لفوره عظم ما أقدم عليه، فمضى هائلاً على وجهه حتى أتى مسجد رسول الله ﷺ فربط نفسه على سارية فيه، وحلف ألا يفك منها

حتى يتوب عليه الله، وقد قبل ﷺ توبته حيث قال: ﴿وَأَخْرَجُوا عَرِفُوًّا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة].

واستمر الحصار خمسًا وعشرين ليلة فلما قرر المسلمون الهجوم على الحصون ليقترحوها عنوة قال بنو قريظة: يا محمد نزل على حكم سعد بن معاذ، فاستنزلوا من حصونهم وسيقوا إلى محبسهم حتى جيء بسعد بن معاذ ﷺ ليقضي في حلفائه بما يرى.

واختار اليهود سعد بن معاذ ﷺ ليحكم فيهم لأنه كان سيد الأوس حلفاء بني قريظة في الجاهلية، فتوقعوا أن يتساهل سعد ﷺ مع أصدقائه وحلفائه، فلما جاء من الخيمة التي كان يُمرّض فيها أحاط به قومه يقولون له: يا أبا عمرو أحسن في مواليك.

ولكن أتى لسعد ﷺ أن ينسى أن الإسلام وأبناء الإسلام، والمدينة بما فيها من حرث ونسل كانوا في خطر ماحق، أتى له أن ينسى تصام اليهود وهو يحذرهم بالأوس القريب مغبة غدرهم، أتى له أن ينسى قولتهم له ردًا على نصيحته التي قال لهم فيها: «وَأَنَا خَائِفٌ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ بَنِي النَّضِيرِ، أَوْ أَمْرٍ مِنْهُ»، فما كان ردهم إلا أن قالوا له مستخفين بنصحه وتحذيره: أَكَلْتَ أَيْرَ أَيِّكَ!

لقد آن لسعد ﷺ ألا تأخذه في الله لومة لائم، وحكم الذي أخلص قلبه لله، أن يقتل الرجال وتسبى الذرية وتقسم الأموال، وأقر النبي ﷺ هذا القضاء الحازم قائلاً لسعد: «لَقَدْ حَكَمْتَ فِيهِمْ بِحُكْمِ اللَّهِ ﷻ مِنْ فَوْقِ سَبْعَةِ أَرْقَعَةٍ».

وحُفِرَت الخنادق بسوق المدينة لتنفيذ هذا الحكم، فقال اليهود لسيدهم كعب بن أسد وهم يساقون لمصارعهم: يَا كَعْبُ مَا تَرَاهُ يَصْنَعُ بَنَانُ؟ قَالَ: أَفِي كُلِّ مَوْطِنٍ لَا تَعْقِلُونَ؟ أَلَا تَرَوْنَ الدَّاعِيَ لَا يَنْزِعُ، وَأَنَّهُ مَنْ دُهِبَ بِهِ مِنْكُمْ لَا يَرْجِعُ؟ هُوَ وَاللَّهِ الْقَتْلُ.

ولابد لنا ونحن نسدل الستار على هذه الحوادث الجسام، أن نقف عند بعض النقاط نتمنعها ونطيل فيها الفكر علنا نستنبط منها العظة والعبرة..

ثرى ما الذي قاد بني قريظة إلى هذا المآل المخزي، لقد أغلقوا على أنفسهم كما علمنا، أبواب حصونهم عندما علموا بمقدم الأحزاب، وقرروا الالتزام بعهدهم مع محمد ﷺ الذي لم يروا منه إلا برًا ووفاً. قد تعجبون إذا قلت لكم: إن السبب الأول يكمن في أن حيي بن أخطب استطاع أن يستفز كعب بن أسد قريظة!

لقد رفض كعب مجرد فتح الباب لحيي بن أخطب إلى أن قال الداهية: وَاللَّهِ إِنْ أَغْلَقْتُ دُونِي الْحِصْنَ إِلَّا تَخَوَّفْتَ عَلَى جَنَابَتِكَ أَنْ أَكُلَ مَعَكَ مِنْهَا؟! وكان بعد ذلك ما كان من حديث طويل نجم عنه إقناع قادة بني قريظة بأنها نهاية الإسلام والمسلمين!

لذا فإن على المسلمين بشكل عام وعلى الدعاة بشكل خاص وعلى القادة بشكل أخص أن يحذروا هذه الناحية، فكم استطاعت المعسكرات المعادية للإسلام والمسلمين من إقحام الدعاة في معاركهم عنها في غنى، وإقحامهم في مواقف قالوا فيه ما يقال، وما لا يقال، وذلك عن طريق الاستفزاز!

والشيء الثاني: دفع بنو قريظة كلهم - إلا أولئك الذين ثبتت براءتهم بأنهم كانوا غير راضين عما يحدث - الثمن غالباً من دمائهم وأبنائهم ونسائهم بقرار قيادي خاطئ، والحال هذا ليس مع بني قريظة فحسب ولكنه مع الشعوب التي يستخدمها قادتها وزعماءها، مع الشعوب التي تسلم قيادها صاغرة ذليلة لكل من هب ودب وإن جاء من المجهول، مع الشعوب التي حصرت طموحاتها في شهوتي البطن والفرج فما عاد يهيمها كرامة شعوب تساق بقرارات قادتها إلى البوار في الدنيا وهم يعيشون في منطقة ظل الأحداث، والبوار في الآخرة: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كَفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ۖ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَيُكْسَرُ الْأَعْنَاقُ ۖ ﴾ [إبراهيم].

الأمر الثالث الذي يجب الوقوف عنده هي: صفات اليهود التي لم تتغير على مر العصور «فهم يسفّهون إذا أمنوا، ويقتلون إذا قدروا، ويذكرون الناس بالمثُل العليا إذا وجَلّوا، أما العهد ففيه آخر شيء في حياتهم»، فالله ﷻ يحدث عنهم وهو العليم الخبير بهم وبما تنطوي عليه نفوسهم: ﴿ أَوْ كَلِمَاتٍ عَاهَدُوا عَهْدًا بَيْنَهُمْ وَيُرِيؤُ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۖ ﴾ [البقرة].

والغريب العجيب أن يركن مسلمو هذه الأيام إلى قَتْلَةِ الأنبياء والمرسلين، فيعقدون معهم عهوداً ويوثقون معهم موثائق غير آبهين إلى تحذيرات المخلصين من أبناء الأمة الإسلامية، من أن هؤلاء اليهود لا عهد لهم، وغير مستفيدين من تجربة مصر التي وقَّعت أيام السادات اتفاقية سلام، فما من يوم ينشق فجره إلا وتطالعنا وكالات الأنباء باكتشاف خلية تجسس صهيونية في مصر! وباختراق طائرات تجسس صهيونية الأجواء المصرية لأغراض تجسسية.

وباكتشاف خلايا صهيونية في مصر تهدف إلى العمل على انحلال الشباب المصري، وإصابته بمرض العصر «الإيدز» عن طريق عاهرات بني إسرائيل المصابات بهذا الوباء! ونشر المخدرات.

الأمر الرابع الذي أود الإشارة إليه: أننا - وللأسف الشديد - أصبحنا كاليهود في عدم الحزم والجزم، فكم من مؤتمر عقدته العرب والمسلمون منذ كانت قضية فلسطين؟! وكم من بيان خطه العرب والمسلمون بخصوص قضية فلسطين؟! وكم من خطبة دبجها العرب والمسلمون في شأن قضية فلسطين؟! فما عادت فلسطين؛ لأن كل القرارات سكنت الأوراق التي سكنت في أروقة القاعات المظلمة، وسرايب مقار القمم العادية منها والطارئة.

لقد زلزل صوت علي بن أبي طالب والزبير بن العوام رضي الله عنهما اليهود عندما قالوا: «يَا كَتِيبَةَ الْإِيمَانِ، وَاللَّهِ لَا ذَوْقَنَّا مَا ذَاقَ حَمْزَةُ - يعني الشهادة - أَوْ لَا فَتَحَنَّا حِصْنَهُمْ»، لقد سارع بنو قريظة إلى القول: يَا مُحَمَّدُ نَنْزِلُ عَلَى حُكْمِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ!

وما هذا إلا لأنهم يعلمون العلم كله أن علي بن أبي طالب والزبير بن العوام رضي الله عنهما، يعنيان ما يقولان، وأنها شديدا الشوق إلى لقاء حمزة رضي الله عنه، وعلى الطريقة التي مات عليها حمزة رضي الله عنه؛ لذا فسرعان ما استسلم اليهود.

في الحين الذي لا يأتبه اليهود لست وأربعين إذاعة وتلفاز وسيل لا يُعد ولا يُحصى من الصحف اليومية والدورية علاوة على الآلاف المؤلفة من الخطب!! ومع ذلك تمددت دولة العدو ولم تنكمش، واستأسدوا ولم يستسلموا.

ألا إن سيرة رسولنا صلى الله عليه وسلم وأسلوب تعامله مع هؤلاء اليهود، مليئة بالعبر والعظات، التي ستثير طريق التائبين الضائعين لو أنهم أخلصوا النية في طريقة دراستهم وفهمهم لهذه السيرة العطرة!.

[تأملات حركية في سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم لأبي راس ٢٥٤-٢٦٠].

١٢ - أهمية المحافظة على الأمن القومي للدولة المسلمة:

يقول أ/ شاكر: «تجمعت الأحزاب ليقضوا على المسلمين ويتتھوا منهم، هؤلاء الأحزاب هم أعداء الله جميعاً في الجزيرة العربية، اليهود والمنافقون في داخل المدينة، وقريش والأعراب في خارجها. وفشلت الأحزاب بل وخرجت متنافرة ولا يثق بعضها ببعض.

وانصرف الأحزاب، وكان على المسلمين أن يضربوا عدوًّا بعد عدو إذ افترقوا بعد اتفاق، وكانت الضربة الأولى يجب أن تتوجه إلى يهود بني قريظة الذين يعيشون مع المسلمين في ضاحية المدينة، والذين كان بينهم وبين المسلمين عهد ففرضوه، عندما وجلدوا أن قوة تحيط بالمسلمين، ومعنى هذا أنه لا يوثق بهم، وكلما سنحت لهم الفرصة قاموا بغدر جديد، هذا من جهة، ومن جهة ثانية فإن التوسع يقضي أن يكون تطهير مركز الحكم قبل كل شيء ثم يكون الانطلاق خارجه، ويظهر جزء بعد جزء، والبدء باليهود لذلك أمر طبيعي حيث إن المنافقين يُظهرون الإسلام، ويحقدون على أتباعه، ولا يعرفهم المسلمون كلهم، وإننا نعرف بعض أفرادهم من تصرفاتهم، ولما كنا غير مكلفين بالشق على القلب ومعرفة الخفايا فإننا نحكم على الظاهر، وعليه فهم مسلمون، ثم إن المنافقين لا ينشطون إلا إذا خافوا على أنفسهم من القتال مع المسلمين، أو وجلدوا قوة تكاد تعصف بالمسلمين عندها يبرز قرن النفاق ويظهر جليًّا، أما إذا قوي المسلمون احتفى المنافقون وزاد إظهارهم للنسك والطاعة». [التاريخ الإسلامي لشاكر ٢/ ٢٨٨].

ويقول د/ هيكل: «وطدت غزوة الأحزاب، ووطد القضاء على بني قريظة، للمسلمين في المدينة، فلم يبق للمنافقين فيها صوت قط، وذهبت العرب كلها تتحدث بقوة المسلمين وسلاطنتهم، وبمقام محمد صلى الله عليه وسلم».

وقوته ورهبة جانبه، ولكن الرسالة لم تكن للمدينة وحدها بل كانت للعالم بأسره، فما يزال على النبي ﷺ وأصحابه إذاً أن يمهّدوا للكلمة الله، وأن يدعوا الناس لدينه الحق، وأن يصدوا عنه كل معتد عليه، وهذا ما فعلوا». [حياة محمد ﷺ لهيكل ٣٥١].

ويقول أ/ فرج: «وهكذا تم إخضاع بني قريظة وانهارت معنويات قريش وفقدت بأسها وخيلاءها وسكنت أصوات المدّعين والمنافقين، واستتب الأمر لرسول الله ﷺ وسجل تاريخ الجهاد العربي لمعركة الخندق أهميتها الحربية ونتائجها الباهرة في تقويض دعائم قريش ودحر اليهود وتفرقة الأحزاب، وانتقال المسلمين من مرحلة الدفاع عن النفس إلى مرحلة الهجوم الوقائي والتعرض الذي لا غنى عنه لحماية المعتقد وصيانة السلم». [انتصارات عربية خالدة لفرج ٥٠].

ويقول د/ طنطاوي: «وبالقضاء على بني قريظة، زال نفوذ اليهود زوالاً تاماً عن المدينة وأطرافها، وأصبحت قاعدة أمانة للمسلمين، وخفت كل صوت يقلق أمنها، ويكدر صفوها، وزادت هيبة المسلمين في قلوب أعدائهم، وتحذرت بقوتهم ونفوذهم، من كان يستخف بهم، وانفسح المجال أمام المسلمين، ليخرجوا من مدينتهم آمنين، فينشروا نور الله في الأرض، وأيقنت قريش وأحلافها بأن الدعوة الإسلامية قد أصبحت قوة في مقدورها أن تتخطى الحدود، وتتجاوز السدود، وبشّر النبي ﷺ أصحابه بأن قريشاً لن تستطيع غزو المدينة بعد الذي أصابها في غزوة الأحزاب.

فقد أخرج البخاري عن سُلَيْمَانَ بْنِ صُرَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ حِينَ أَجْلَى الْأَحْزَابِ عَنْهُ: «الآنْ نَغْزُوهُمْ وَلَا يَغْزُونَنَا، نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِمْ». [البخاري في المغازي (٤١٠٩، ٤١١٠)، ومسنّد أحمد ٣٠/٢٤٠، ٢٤١ رقم ١٨٣٠٨، ١٨٣٠٩، ٤٥/١٨٤ رقم ٢٧٢٠٦].

وقد أيدت الأحداث صدق ما أخبر به الرسول ﷺ. [بنو إسرائيل في القرآن والسنة لطنطاوي ٣٠٦].
ويقول أ/ رضوان: «وهكذا تطهرت عاصمة الإسلام من مؤامرات اليهود واستعدت أمة الإسلام لنشر نور الله في مشارق الأرض ومغاربها.

ولم تعد قريش تجرؤ بعد الخندق على الدخول في معركة حاسمة ضد المسلمين، لقد تحولت دفة الحرب بعد الخندق وبني قريظة لصالح المسلمين تماماً، وصاروا هم المهاجمين، وتكتفت قريش بأغلال الدفاع، حتى فتح الله مكة وانهيارها النهائي أمام جيوش الحق الزاحفة».

[محمد ﷺ القائد الأعظم لرضوان ٩٧].

ويقول أ/ الشامي: «تعتبر أيام الخندق ذروة الخط البياني لأيام الشدة التي أصابت المسلمين في المدينة إبان حياته ﷺ، وبانتهاء تلك الأيام وذهابها تبدأ المدينة عهداً جديداً، ويصبح زمام المبادرة بأيدي المسلمين، وقد قال ﷺ حين انصرف الأحزاب عنه: «الآنْ نَغْزُوهُمْ وَلَا يَغْزُونَنَا، نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِمْ»، وجاءت الأحداث بعد ذلك مصداق قوله ﷺ.

إن قوة الشرك التي التقت على حرب المسلمين يومئذ هو أكبر قوة يمكن جمعها، ولئن فشلت وهي مجتمعة، فليس من السهل أن تفكر قريش بعد الآن وهي منفردة أن تجازف بسمعتها مرة أخرى فتخرج من مكة تريد حربه ﷺ.

وخرج المؤمنون من هذا الابتلاء مرفوعي الرؤوس بإيمانهم، شاكرين الله تعالى ذاكرين نعمه عليهم. وخرجت المدينة أيضًا من هذه المحنة، وقد نظفت أرضها من بني قريظة آخر القبائل اليهودية التي كانت فيها، وبهذا تخلصت من عامل هام كان يسعى لبث الفرقة، وإثارة الفتنة، وتقوية النفاق وأهله، وتأيد الباطل والساعين تحت لوائه.

وطأ طأ النفاق رأسه، خاصة وأن أهله كانوا يتوقعون نتيجة أخرى، فجاء الواقع بغير ما يشتهون، وبما ساءهم وفضح نواياهم الآيات الكريمة التي نزلت بحقهم، فأبطلت كل زيف كانوا يتظاهرون به وبدت حقائقهم وليس هناك ما يسترها.

وكان على المنافقين أن يغيبوا وجوههم عن المؤمنين حياء وخجلاً - إن كان فيها ذلك - ولو إلى حين، ريثما يمضي على الحادثة الزمن الكافي، أو ريثما يشغل المسلمون بما يستجد من أحداث.

كما غابت القبائل اليهودية عن مسرح الأحداث في المدينة، وأضحت كلمة الإيمان لا مزاحم لها.

[من معين السيرة للشامي ٣٢٧-٣٢٨].

ويقول د/ حبيشي: «لقد استراح المسلمون والنبي ﷺ بعد أن أجلوا اليهود عن أرضهم من الخيانات اليهودية، ومن غمّزهم وكَمَزهم، ومن محاولة تفريق الصفوف بين المسلمين.. إلى غير ذلك من أساليبهم السيئة، ومكائدهم التي لا تحتمل.

وما كان لبشر أن يتصور أن اليهود الذين اغتصبوا الأرض في المدينة، سيحاولون أو يحاول بعضهم أن يذهب إلى حتفه بقدميه، أو يتسبب في إحداث القلق الذي ينتهي به إلى الجلاء عن الأرض المغتصبة، إلا أن يكون الذي سيتصور ذلك قد فهم طباع اليهود فهماً قد أورثه خبرة بالقوم، وبصرًا بشؤونهم وخلافتهم». [رسالة من النبي ﷺ إلى الأمة من خلال تعامله مع خيانات اليهود لحبيشي ١٥٢].

ويقول د/ الغضبان: «لقد كانت المعركة شوكة كبيرة للمسلمين، ونصرًا ماحقًا لليهود، وإنهاء لوجودهم في المدينة بعد ست سنوات من التعايش القلق، وهذا ما قاله سلام بن مشكم زعيم بني النضير بعد حبي بن أخطب، والذي أقام في خير، وتلقى مع بقية اليهود نبأ مقتل بني قريظة صبرًا بالسيف: هَذَا كُلُّهُ عَمَلُ حَبِيٍّ بَنٍ أَخْطَبَ، شَأْمَنَا أَوَّلًا وَخَالَفَنَا فِي الرَّأْيِ، فَأَخْرَجَنَا مِنْ أَمْوَالِنَا وَشَرَفَنَا وَقَتَلَ إِخْوَانَنَا، وَأَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ سَبَاءُ الذُّرِّيَّةِ، لَا قَامَتْ يَهُودِيَّةٌ بِالْحِجَازِ أَبَدًا، لَيْسَ لِلْيَهُودِ عَزْمٌ وَلَا رَأْيٌ».

[المنهج الحركي للسيرة النبوية للغضبان ٢/ ٣١٣].

ويقول أ/ سيد قطب: «ومنذ ذلك اليوم ذلت يهود، وضعفت حركة النفاق في المدينة، وطأطأ المنافقون رؤوسهم، وجبنوا عن كثير مما كانوا يأتون، وتبع هذا وذلك أن المشركين لم يعودوا يفكرون في غزو المسلمين، بل أصبح المسلمون هم الذين يغزونهم، حتى كان فتح مكة والطائف. ويمكن أن يقال: إنه كان هناك تلازم بين حركات اليهود وحركات المنافقين وحركات المشركين، وإن طرد اليهود من المدينة قد أنهى هذا التلازم، وإنه كان فارقاً واضحاً بين عهدين في نشأة الدولة الإسلامية واستقرارها.

فهذا مصداق قول الله سبحانه: ﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ۝٣٦ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطْغُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ۝٣٧﴾ [الأحزاب].

والصياصي: الحصون، والأرض التي ورثها المسلمون ولم يَطْغُوهَا، ربما كانت أرضاً مملوكة لبني قريظة خارج محلتهم، وقد آلت للمسلمين فيها آل إليهم من أموالهم، وربما كانت إشارة إلى تسليم بني قريظة أرضهم بغير قتال، ويكون الوطء معناه الحرب التي توطأ فيها الأرض.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ۝٣٧﴾.

فهذا هو التعقيب المستتر من الواقع، وهو التعقيب الذي يرد الأمر كله إلى الله، وقد مضى السياق في عرض المعركة كلها يرد الأمر كله إلى الله، ويسند الأفعال فيها إلى الله مباشرة؛ تبييناً لهذه الحقيقة الكبيرة، التي يثبتها الله في قلوب المسلمين بالأحداث الواقعة، وبالقرآن بعد الأحداث، ليقوم عليها التصور الإسلامي في النفوس.

وهكذا يتم استعراض ذلك الحادث الضخم، وقد اشتمل على السنن والقيم والتوجيهات والقواعد التي جاء القرآن ليقمها في قلوب الجماعة المسلمة وفي حياتها على السواء.

وهكذا تصبح الأحداث مادة للتربية، ويصبح القرآن دليلاً وترجماً للحياة وأحداثها، ولا تجاهها وتصوراتها، وتستقر القيم، وتطمئن القلوب، بالابتلاء وبالقرآن سواء!.

[في ظلال القرآن لقطب ٥/ ٢٨٤٩].